# معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء

عندما أرسلت كلمتى على « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء » فى عدد يناير من مجلة « الأديب » البيروتية كنت أنتظر أن تثير هذه الكلمة بعض الشؤون فى البيئات التى تعنى بتاريخ الفكر عند العرب ، وأن يتحمس لفكرتها بعض الاختصاصيين فى مثل هذا الموضوع ، فيعالجها بما تقتضيه الدراسة الموزونة والرصانة العلمية . وكنت على شبه يقين من أن هذه الكلمة تروق كثيرين من أصحاب التجديد فى أساليب البحث والتنقيب ، الساعين إلى الحق الصراح ، وأنها قد لا تعجب نفراً آخر ؛ لأن البينات التى سقتها بحاجة إلى القطعية والحتمية ، وتقوم على افتراضات ، إن جاز لها أن تخط أمامنا أفقاً أنفاً ، فهى لا تعرض لهذا الأفق بالتفصيل والتبيين . فكان أن أوجزت مجلة « الكاتب المصرى » فى عدد يناير ١٩٤٧ ملخص البحث ، ثم نشرت فى عدد أبريل ردا للأديب محمد كامل حسين حاول فيه أن ينفى عن إخوان الصفاء الهوى الوثنى ، وأن يبين أن الافتراضات التى سقتها فى البحث «مغالطات جريئة » ، وأن النصوص قد عدلت وحرفت بحيث أصبحت مطاوعة للفكرة التى أهدف إليها . ووقف من الفكر التى استندت إليها ، لفتح هذه الثغرة فى معقل إخوان الصفاء ، موقفاً سلبيا ، أدى إلى الرجوع بدراستهم إلى نقطة الابتداء . وقد كان بودى ، مع احترامى لمجلة « الكاتب المصرى » التى يشرف عليها عميد الأدب العربى ، أن يذيع حضرة الأستاذ رده ، حسب أصول المناظرات العلمية ، فى مجلة « الأديب » نفسها ، فيقف عليه من اطلع على المقالة ، ولمس أسلوبها الافتراضى ، وتبين دقائق فقراتها ، بحيث ينتهى من مطالعة الكلمة والرد إلى نتيجة يرضى عنها استنتاجه الخاص . ولكنه آثر أن يقرأ الرد من لم يقف على البحث ، وأن يقف على البحث من لم يطلع على الرد ، فأضاع على كثيرين متعة الموازنة . فى رأيى أن ما ذكره

حضرة الكاتب ، وإن كان ترديداً للمألوف عن الاخوان ، لا يزال إلى الآن يلخص النظرية الشائعة فى البيئات التاريخية ، وهو بحاجة إلى إعادة نظر و بحث وغربلة . ولقد جاء فى المقدمة الممتعة التى مهد بها الدكتور طه حسين للرسائل منذ عشرين عاماً ، أن هذه الرسائل تتطلب مطالعة دقيقة ، وعيوناً تقرأ ما بين السطور ، وأذهاناً تهتدى إلى الحقائق الخفية . والواقع أن أمرها غريب عجيب ؛ لأنك واجد فيها ماتشاء من المذاهب الدينية والفكرية ، وواجد فيها أثراً لجميع المتفلسفين والمدارس التى عرفت فى الحضارتين اليونانية — البيزنطية والعربية. وبوسعك أن تقرأ فى تضاعيفها ماتشاء من النصوص التى تؤيد إيمانهم القويم، وعقيدتهم الثابتة بالأصول ، وأن تتبين فيها أنهم روحانيون ، لا يعنون إلا بخلاص نفوسهم ، و إعداد العدة اللازمة لبلوغ مراتب الملائكة ، كما تتبين إلى جانب كل هذا سعيهم الحثيث نحو غاية سياسية معينة ، تقوم على قلب الحكومة الحاضرة ، وتأسيس حكومة جديدة فى أمة أخرى . وبوسعك أن تقول عنهم إنهم علويون ، وباطنيون ، و إسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ؛ لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً فى الرسائل ، ولأن هذا الخليط يتجاور فيها على غير وفاق ، ويترادف على غير اتساق . وهم فى الواقع ليسوا شيئاً معيناً ، بل هم كل شئ . تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان . فيها ماتشاء من أقوال الفيثاغوريين ، والأكاديميين ، والمشائين ، والاسكندريين ، والرسل ، والأنبياء ، وأصحاب الفرق من أتباعهم .

لهذا أرى أن الكاتب قد تجنى على « معالم الوثنية » عندما ألح أن نحكم على إخوان الصفاء من ظاهر كلامهم ، وأن يكون اعتمادنا على النصوص التى تؤيد عقيدتهم الشرعية ، لا على النصوص التى نستشف منها أثراً وثنيا . وقد فات حضرته أن موقف الاخوان فى رسائلهم من الرأى العام المسلم ، فى ذلك الحين ، موقف المجرم الذى يسعى جاهداً فى إثبات براءته ، و إخفاء معالم جريمته ، وأن موقفنا منهم موقف القاضى الذى يحاول بضروب من الاستنتاج اختراق الحجب للوصول إلى الحقيقة ، فيتبين من دفاع الماثل أمامه مايثبت إدانته . وهذا ما أشار إليه حضرته فى قوله « . . . فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص ، هى التى تتفق مع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها » . وهو أمر لا أنكره ، ولا تنكره

الدراسة العلمية ؛ لأنى لا أريد أن أقف الناس على رأى إخوان الصفاء الظاهر فى إخوان الصفاء المستترين . وإلا فما على هؤلاء الناس إلا أن يأخذوا الرسائل فيطالعوها ، وينتهوا إلى مايشاء حظهم من الاستنتاج .

لسنا أول من ذهب هذا المذهب فى إخوان الصفاء وإنما تبدو طلائعه عند بعض المؤرخين القدماء والمحدثين . وأمهات الكتب التى عنيت بتدوين مراحل الفكر عند العرب ، تشير إلى هذا التلون وهذا التمويه . فأبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى سنة ٤٠٣ هـ. يقول عن رسائلهم فى « الإمتاع والمؤانسة » ، بعد أن اطلع عليها « . . . وفيها خرافات ، وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وقد غرق الصواب فيها ، لغلبة الخطأ عليها » بعد أن تبين أنهم « قد حشوها بالكلم الدينية ، والأمثال الشرعية . والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة » (١) . وهذا رأى ردده القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ. — ١٢٤٨ م. فى « أخبار الحكماء »(٢) ، ولا يخالفه أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ. — ١١١١ م. فى قوله الوارد فى « المنقذ من الضلال »(٣) . وفطن المستشرق ت. ج. ده بور إلى هذا التلون ، فذكر فى الباب الذى خصهم به رأيه فيهم ، قال : « . . . فنشأت جماعات سرية . . . وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا . نعم كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن ، ولكن أصولها مأخوذة من مذاهب الفلاسفة الوثنيين . . . » (٤)

ليس بودى أن أعود إلى نص كلمة الأديب محمد كامل حسين ، فأفند ماجاء فيها مخالفاً للواقع ، وأشير إلى النصوص المنثورة فى تضاعيف الرسائل التى تؤيد كل ما عرضته من بينات ، كسعى إخوان الصفاء فى فصل السلطة الدينية عن المدنية فى الخلافة الاسلامية ، واطرائهم المجوسية ، واحتذائهم

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٣ وما بعدها ـ القاهرة ١٩٤٢ .

(٢) ص ٥٨ وما بعدها ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ .

(٣) ص ١١٩ و ١٢٠ ـ طبعة دمشق ١٩٣٤ .

(٤) ده بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٩٥ ـ ٩٦ وقد زاد المعرب فى الهامش قوله : « ... قارئها يجد أنها تقم من كل مذهب ، وتمزج الدين بالفلسفة مزجاً غير سائغ . فالآيات والأحاديث تحشى بين العبارات الفلسفية حشواً ، ويستشهد بها فى غير موضعها » .

أساليب أحمد الكيال فى بث دعوتهم ، واحتفالهم بالأعياد الفصلية ، واعتقادهم بقدرة الانسان على الأتصال بالكواكب لتعديل الأحداث الكونية ، والقرابة التى تصلهم بالصابئة الحرانية ، وإنما أرى الاكتفاء ، لضيق المجال ، بالأمور الرئيسية ، فأعرضها مجدداً بما يزيدها وضوحاً أمام القارئ والناقد .

## فصل الدين عن الدنيا

من مزاعم الكاتب أن المسلمين لم يسلموا جميعاً بأن الخليفة ينعم بالسلطتين الدينية والمدنية ، وأن « الفرق قد كثرت لخلافهم فى الخليفة » . والتاريخ الاسلامى الذى يتذرع به يشير إلى اختلاف الفرق فى أمر الامام ، وفى الشروط التى يجب أن تتوافر فيه . وليس هنالك فرقة إسلامية واحدة من الفرق الرئيسية تنكر عليه جمع السلطتين ، إلا إذا حاولنا الاعتماد على أقوال بعض الفرق الثنوية التى لا شأن لها . ويؤيد قولنا ماجاء فى الرسائل نفسها « اعلم أن الأمة كلها تقول إنه لابد من إمام يكون خليفة لنبيها فى أمته بعد وفاته . وذلك لأسباب شتى وخصال عديدة . أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة . ويحيى السنة فى الملة . والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . وتكون الأمة تصدر عن رأيه »[1] . وقد يفطن الكاتب إلى أن الأعمال التى خصها الاخوان ، فى هذا المقطع والذى يليه ، بالامام تعنى صراحة أن جميع المسلمين يؤمنون باجتماع السلطتين فى يد واحدة .

يقولون ذلك وهم يعتقدون « أن خصال النبوة والملك قد تجتمع فى شخص من البشر فى وقت من الزمان . فيكون هو النبى المبعوث ، وهو الملك ، وربما تكون فى شخصين اثنين أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهم »[2] .

ولعل صاحبنا يفطن أيضاً إلى المغزى البعيد الذى يرمى إليه الاخوان فى قولهم « فى وقت من الزمان » . و « إن الله تعالى جمع لنبيه ، عليه الصلاة

---

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠ . — (٢) ج ٤ ص ٣٢ .

والسلام والتحية ، خصال الملك والنبوة جميعاً ، كما جمعها لداود وسليمان عليهما السلام ، وكذلك جمع أيضاً ليوسف الصديق عليه السلام »[١] . ونحن عارفون أن الاخوان لم يصرحوا فى نصوصهم الظاهرة بالحقيقة التى يضمرونها، ولم ينسقوا مباحثهم تنسيق العالم المعاصر ، من حيث المقدمات والعرض والنتائج إنما موهوا الحقائق تمويهاً . ولو أنعمنا النظر فى الصفحات القليلة التى بينوا فيها أسباب اختلاف العلماء فى الامامة لوضح لنا اعتقادهم أن الله إذا جمع النبوة والملك فى شخصية النبى ، كما جمعها من قبل فى سواه ، فلأن النبى العربى اكتملت فيه الخصال الكريمة الضرورية للنبوة والملك ، وأن هذه الخصال ضرورية أيضاً للامام الذى يليه فى منصبه « لأن الخلافة نوعان : خلافة النبوة ، وخلافة الملك »[٢] ولأن « فى بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة ، وذلك أن الملك أمر دنيوى ، والنبوة أمر أخروى ، والدنيا والآخرة كأنهما ضدان ، وأكثر الملوك يكونون راغبين فى الدنيا ، حريصين عليها ، تاركين الآخرة ، ناسين لها »[٣]

من هذا يتبين لنا :

١ — أن جميع المسلمين قالوا باجتماع السلطتين ( كما ورد فى الرسائل ) .

٢ — أن النبى كان نبيا وملكا لاكتماله بالخصال الضرورية .

٣ — أن هذه الخصال قد تكون فى شخصين اثنين : أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهما ، وهذا مايحدث فى الخلفاء من بعد .

٤ — أن بعض أخلاق الخلفاء مضادة لخصال النبوة ، فيرون أنهم ، « يسيرون سيرة الجبابرة ، وينهون عن منكرات الأمور ، ويرتكبون هم منها كل محظور ، ويقتلون أولياء الله . . . ويشربون الخمر ، ويبادرون إلى الفجور الخ . . . »[٤] ولهذا فهم يحبذون فصل السلطتين .

٥ — أن الأخوان يدعون لنظام شبيه بالنظام الكروتونى الذى أثر عن

---

(١) الرسائل جزء ٤ صفحة ٣٣ .
(٢) ج ٤ ص ٣١ .
(٣) ج ٤ ص ٣٤ .
(٤) ج ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

فيثاغورس[١] وذلك عندما يبينون للناس أن النبى بعد أن يتوفى قد لا تجتمع خصاله فى فرد واحد ، بل تتفرق فى جماعة تآلفت ، واتفقت كلمتها على رأى واحد ، وتعاضدت على نصرة الدين ، لتدوم لها الدولة فى الدنيا ، والعقبى فى الآخرة[٢] ويحضون المريد على الانضمام إلى هذه الجماعة ، أى الجمعية ، إذا كان عازماً على طلب إصلاح الدين والدنيا .

أما ما أوردوه من إشارات إلى علويتهم ، وميلهم إلى آل البيت ، فليس فى الواقع إلا تقية و إخفاء للواقع . وقد سبقهم من ادعى ادعاءهم . وأحمد الكيال الذى أشرنا إليه فى المقال الرئيسى أوضح مثال على الجماعات التى كانت تتستر بالتشيع ، وتضمر فى نفسها غاية خاصة . وقد آثرت المجوسية الظهور بزى الشيعة لأسباب عديدة ، لا مجال لتفصيلها ، منها اعتقاد هذه بمجئ المهدى وزعم المجوس أن سوميين الذى ينتظرون خروجه ويصير الملك إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلا ، عليهم جلود الفهود ، لا يعرف هرًّا ولا برًّا، حتى يأخذ جميع الدنيا[٣] .

أما إذا شاء كاتب الرد أن ينفى عن الاخوان التأثر بالوثنية ، فارسية كانت أو حرانية أو يونانية ، بقوله إنهم من الباطنية ، فلسنا نرى مجالا يتسع لمناقشته فى أمر هذه الباطنية ، وقرابتها من الوثنية ، بل نكتفى بأن ننقل إليه رأى أحد المؤرخين المشهورين هو عبد القاهر البغدادى فى كتاب « الفرق بين الفرق » حيث يقول : « ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

---

(١) النظام الكروتونى هو الذى اعتنقه الفيثاغوريون فى المدرسة التى أسسها فيثاغورس فى مدينة كروتونا من أعمال إيطالية . وذلك انه أنشأ عام ٥٣٠ ق . م . جمعية فى دار هجرته تضم الأنصار والمؤيدين . ووضع لها أسساً عامة ، ونظماً داخلية ، وسن لحياة أعضائها العقلية والجسمية قوانين لا يمكن الخروج عليها أو تجاوزها . يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم . والجميع يتلقون التعاليم تدريجياً حسب استعدادهم . وقد أخذت هذه الجماعة ، فيما بعد ، بالانكماش على نفسها ، والتقية فى أقوالها ، والتستر فى أعمالها ، وبدأت تؤمن ان لا حياة لها إلا فى اسيلائها على الحكم ، وتعديل النظم القائمة لنشر مبادئها . ومن هنا نشا الاختلاف بينها و بين السلطة فى المدينة ، مما أدى إلى القضاء على الجمعية ، واحراق مقرها ، والفتك بأعضائها . والامر الثابت أن إخوان الصفاء كانوا يرمون إلى مثل هذه الغاية .

(٢) راجع الرسائل ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) الجاحظ كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٧٧ .

كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره ، فوضعوا للائمار منهم أساساً من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل دين المجوس . وتأولوا آيات القرآن ، وسنن النبى عليه السلام ، على موافقة أساسهم » (١) .

## أثر الكواكب والسيارات

من الآراء الطاغية فى الرسائل مذهب الاخوان فى الكواكب والأفلاك ، وأثرها فى « عالم الكون والفساد » . يوردون فصولا متعددة ، وشذرات متفرقة فى رسائلهم ، يؤيدون بها هذا الأثر ويفصلونه ، ويبينون أن كل ما يحدث فى العالم الأرضى ليس إلا بتأثيرها ومفعولها . ولا يفوتهم أحياناً القول ، على سبيل التمويه والتقية ، إن الله هو الذى قدر مصير الكليات والجزئيات ، فى حين أن رأيهم الحقيقى جلى يستشفه كل قارئ فى أغلب الرسائل . فهم يعتقدون أن هذه الكواكب كانت السبب المباشر فى التكون الطبيعى ، وظهور المادة والصورة ، وتشكيلها بالهيئات الجمادية والنباتية والحيوانية والانسانية ، وظهور الفردية فى الأنواع ، وهى بالاضافة إلى كل ذلك سبب مايصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب فى تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، وباعث الحياة والموت . وهى دلائل بينة فى السماء ، يستنتج منها الراسخون فى العلم مصير الكائنات ، وأسرار الانقلابات ؛ ليس لأنها إشارات خفية ترسمها العلة الأولى فى السماء ، بل لأنها العلة المباشرة لكل ما يتكون وينحل ويفسد . وفى رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون . وهم ملائكة الله ، وملوك أفلاكه ، وسكان سمواته . وقد عرفوا ذلك — كما يقولون — بعد النظر فى العلوم الالهية وأحكامها (٢) . ويزيدون قائلين : « فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق . وهى الأشخاص الفلكية التى نصبها البارى تعالى وأجراها مجاريها ، وإن كان المنجمون يخطئون فى بعض استدلالاتهم

---

(١) ص ١٧٤ — مصر ١٩٢٤ .
(٢) ج ٤ ص ٣٧ .

أو فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لأدريس النبى »[١] .

ليس لإدريسهم أية صلة بادريس النبى الذى اقتصر النص القرآنى على القول عنه : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً عليا »[٢] فتواروا كعادتهم وراءه ، وأضمروا هرمس المعروف بالمثلث النعم الذى عاش — كما تقول الأساطير — قبل الطوفان ، وهو من يشير إليه ابن أبى أصيبعة « بأنه الذى تذكر الحرانية نبوته ، وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، أى آدم ، ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ ، وهو بالعربية إدريس » . ثم يزيد على ذلك « أنه أول من تكلم فى الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وأن جده علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ، ومجد الله فيها ، وأول من نظر فى الطب وتكلم فيه ، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة ، بأشعار موزونة ، وقواف معلومة ، بلغة أهل زمانه ، فى معرفة الأشياء الأرضية والعلوية[٣] » . فهرمس هو هرمس فحسب . وأما مماثلته للنبى إدريس فليست إلا من الوثنية المتسترة ، ولا سيما الصابئة التى أطلقت على العلة الأولى اسم « الله » مجاراة للبيئة التى عاشت فيها ، وللظروف السياسية التى أحاطت بها . وعملية التماثل والتشابه بين الشخصيات الالهية القديمة ، عند مختلف الشعوب الوثنية ، أمر مشهور . كانوا إذا نزلوا بلداً من البلدان حملوا إليه آلهتهم ، وماثلوها بما هم واجدوه فى ديار الغربة . ولهذا لم نجد بين الوثنية الشرقية ، ولا سيما الفارسية والفينيقية ، وبين الوثنيتين اليونانية والرومانية تضارباً فى المذهب ، ولم نشهد نضال موت أو حياة ، وإنما هناك تداخل وتماثل ، وهناك آلهة تتخذ حيناً اسما شرقيا ، وأحياناً اسماً يونانيا أو لاتينيا ، فى حين أنها تحتفظ بميزاتها الرئيسية . والأمثلة على ما نقوله ميسورة فى كتب التاريخ المدرسية فلا نرى من الضرورى سوقها فى مثل هذه الكلمة . وقد شك المحققون فى القرابة التى تصل هرمس بادريس ، ونقلوها فى نصوصهم ، بعد أن أشاروا إلى ضعفها فقال الشهرستانى : « . . . ويقال هو إدريس النبى عليه السلام »[٤] وجاراه فى

---

(١) ج ٤ ص ٨٣ . — (٢) مريم ٥٦ — ٥٧ . — (٣) ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٦ .
(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ج ٢ ص ١١٢ .

الشك ابن خلدون ، فقال : « . . . وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس هو هرمس المشهور بالأمامة فى الحكمة عندهم[١] » . ومن المعروف أن الوثنية ، على جميع أنواعها ، قابلة للتكيف والتعدل حسب المناخ الاجتماعى والسياسى ، وأن جماعة ، كاخوان الصفا ، ينثرون الآيات القرآنية شمالا و يميناً فى غير مواضعها لذر رماد فى عيون المؤمنين ، بوسعهم ، فى كثير من اليسر ، أن يقوموا بهذا التمويه الساذج .

نجد فى الرسائل ذكراً للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية ، والدعاء لها ، وتخصيصاً للأثواب التى يجب أن تلبس ، والقرابين التى تقدم فى هياكلها . وكل هذا يذكرنا بالمأثور عن الصابئة الحرانية التى تعبدت للعلة الأولى ، ثم العقل الكلى ، وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وجعلت لكل منها هيكلا خاصا ، وشعائر خاصة .

نجتزئ بمثال واحد من عبادة الصابئة الحرانية للأشخاص الفلكية ، فنقف على أساليبهم فى التقرب إلى الشمس وخصائصها ، كما جاءت فى أمهات الكتب التاريخية . فمن المعلوم أن الهيكل الخاص بعبادة الشمس مربع الشكل ، مذهب اللون ، دهنت جدرانه بالأصفر ، وستوره من الحرير الأصفر المذهب . وفى وسط الهيكل مقعد فوق ست درجات ، وعليه صنم من ذهب مقلد بالجوهر ومتوج بتاج الملك ، وتحته على كل درجة أصنام تتحلق حوله ، مختلفة فى مادتها ، ما بين خشب وحجر ومعدن مركب ، وأكثرها تماثيل ملوك ماتوا فأبقوا لهم أمثلة يذكرون بها . إذا شاء الكاهن أن يدعو للشمس يتحلى بالتيجان ، و يرتدى الحلل الثمينة ، ويدخل الهيكل ، ويبده مجامر العود والند ، ويضحى له بما يشبهه من الحيوان ويقول : « مسبح أنت أيها النير الأعظم ، حارق النور والمحترق به . أنت الرب النورانى ذو الحياة النارية ، والنفس الكلية ، والنور الباهر . قدمنا إليك هذه الضحية المختارة الشبيهة بك ، فتقبلها منا ، وارزقنا من خيرك ، وأعذنا من شرك » .

ونحن واجدون فى الرسائل الطقوس والرموز نفسها ، دون زيادة أو نقصان . فالشمس مختصة بالملوك ، وبكل ما علا وارتفع قدره وعظم ذكره من النبات

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥ ـ مصر ١٩٣٦ .

والمعادن . واللباس الخاص بها الديباج الأصفر ، وحليها الذهب الأحمر . ولكن ما لنا ولهذه الموازنة التى قد تطول فتستوعب بحثاً كاملا ، فما علينا إلا الرجوع إلى الجزء الرابع من الرسائل ، وأن نقرأ المادة الواردة بين الصفحة الستين بعد المائتين إلى الصفحة السبعين بعد المائتين ، وأن نقف على ما نثروه فى تضاعيف الرسائل الأخرى ، وأن نطالع ما عرف عن الصابئة وهيا كلها وعبادتها السيارات ، لنتأكد أن المنبع واحد ، إذا لم تكن الجماعتان فئة واحدة .

أما القول بأن التنجيم من الأمور التى ألفها الناس فى حضارة العرب ، كما أنها عرفت فى الحضارات القديمة ، ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها ، فهو قول فاسد لأن التنجيم للتنبؤ بالحوادث المقبلة شئ ، والاتصال بالكواكب لاكتساب خيراتها ، ورد شرورها ، وتحويل نتائج الحوادث المقررة ، شئ آخر . وعلى كل فان الاسلام وجميع الديانات الموحدة قد ناهضت التنجيم كتنبؤ بالمستقبل ، وكتعديل لحوادثه . وليس فى القرآن آية واحدة تؤيده ، بل كل ما ورد فيه بيّن ، إن الله إنما جعل القمر والشمس لنعلم عدد السنين والحساب والكواكب زينة للسماء[1] . وقد قال المستشرق الايطالى المشهور نللينو : « يكاد المتكلمون والفقهاء والفلاسفة يجمعون على مناهضة التنجيم . أما الشاذون كالكندى ، وإخوان الصفاء ، وفخر الدين الرازى فهم نادرون »[2] . وهناك نصوص تثبت بجلاء أن التعليم الأفلاطونى المحدث ظل حيا فى مدينة الاسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، ثم انتقل إلى أنطاكية ، ومنها إلى مدينة حران[3] ، وهكذا انطفأت الشعلة الأفلاطونية فى كل مكان لتزهر فى المدينة الوثنية . وإذا بالمذهب الاسكندرى الذى ترعرع فى ظل الوثنية الاغريقية يلتجئ فى ساعاته الحرجة إلى أحضان الوثنية الحرانية . فهل كان التنجيم

---

(١) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » يونس ٥ « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ... » الصافات ٧،٦ « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر ١٧،١٦ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة Astrologie .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٠٥ ـ طبعة القاهرة ١٩٣٨ .

بمعناه السحرى ، أى العلم المحول والمعدل للأحداث العالمية ، من نتاج المدرسة الأفلاطونية المحدثة أخذته الصابئة كما اقتبسه الاخوان مباشرة عن مصدره الأول ؟

إن نظرة عجلى نلقيها على المجموعة الثانية من تاسوعات أفلوطين نفسه تبين لنا موقف مؤسس المذهب من هذا العلم . فهو يعتقد أن التنجيم يناقض كل المناقضة علم النجوم ، أو الهيئة ، لأن طلوع كوكب أو غروبه ، ونزوله فى الأبراج ، وانتقاله من منطقة فلكية إلى أخرى ، كل هذه الأمور تختلف باختلاف موقع الملاحظ أو المراقب الواقف على سطح الأرض . ويعتقد أن الأجسام العلوية ، منها السيارات ، هى كائنات تامة ، لا يطرأ عليها تعديل أو تحويل . وكل ما ينسب إليها من تبدل فى الخلق من لين وقسوة ، وحب وبغض ، لا حقيقة له . وهى تؤلف فى مجموعها جزءاً من الكائنات الخاضعة للنواميس التى تسير الكون بأجمعه . وأما القول بأنها تتأثر بالصلوات والدعوات والقرابين فذلك مما لا يسلم به . ويلاحظ هازئاً « إن حياة الكوكب لمزعجة حقا إذا كان عليها أن توجه جميع الكائنات فى العالم الأرضى ، وأن تحيى فى النفوس الفضائل والرذائل ، وتوزع الثروات ، وتزرع العقبات والمصائب »(١) .

فمن الواضح إذاً أن إخوان الصفاء أخذوا هذا العلم مباشرة عن الصابئة الحرانية ، وليس من الأفلاطونية المحدثة . وذلك أن حران كانت المنبع الرئيسى لمثل هذه المباحث كما تقدم معنا . ومن الثابت أن الفيلسوفين اللذين اشتهرا بمجاراة الصابئة فى اعتقادها هذا ، أى الكندى والفارابى ، قد ترددا على حران ، ووقف الأول منهما على كتبهم ، وأعجب بالآراء التى قالوا بها ، ورأى من المحتم على الفيلسوف أن يذهب مذهبهم . واتصل الفارابى بيوحنا بن حيلان فى حران ، وعاد منها بمذاهب جديدة تناسب الوثنية الحرانية ، فعرض مثلا لنظرية الفيض ، وتجاوز فيها الأسس التى وضعها أفلوطين ، وذهب فى سلسلة الروحانيات ، أو العقول المفارقة ، كما يسميها ، مذهباً لا نتبين له شبيهاً عند الاسكندريين ، بل عند الصابئين وحدهم .

---

(١) Plotin *Ennéades*, II pp. 33-34. Ed. Bréhier, Paris 1924

**الأعياد الفلسفية**

يوجهون الرسالة الخمسين التى يبدءونها بذكر الرسالة الجامعة إلى أحد الأعضاء — كما ورد فى مقدمتها — ليقرأها على من يخصه من الاخوان الكرام . ويطلقون عليها اسم « الفصل الجامع » ويأمرون الأخ السعيد ، بعد وقوفه عليها باتباع ما أمروه به ، لينال السعادة العظمى ديناً ودنيا . وفى رأينا أن هذه الرسالة من أكثر الرسائل دلالة على الغاية التى يهدف إليها الاخوان ، ومن النصوص التى يجب أن يتوقف عندها الدارس ، وينعم الناظر فى معانيها الظاهرة والباطنة .

يعرضون فى هذه الرسالة للعبادات ، فيقسمونها إلى نوعين : العبادة الشرعية الناموسية ، وهى اتباع صاحب الدين ، والانقياد لأوامره ونواهيه ؛ والعبادة الفسلفية الالهية ، وهى الاقرار بتوحيد الله . ولكنها فى الواقع — كما يقولون فى مقطع آخر من الرسالة نفسها — عبادة الفلاسفة القدماء ، والأجلة العلماء ، كانوا يأخذون بها أولادهم وتلاميذهم .

يحضون على القيام بالنوعين معاً ، ولا ينصحون بالتعرض للعبادة الثانية إلا من أتم الأولى وأتقنها ، ثم يأخذون فى بعض الشروح المتعلقة بالعبادة الفلسفية ، وهى شبه مدخل لها ، لعل قارئ الرسالة « يقوم بشئ منها »(١) وليس من الضرورى أن نعيد ما يذكرونه عن العبادة الشرعية ، لأنها لا تختلف فى شئ عن المألوف فى البيئة الاسلامية . وأما العبادة الفلسفية فتقوم على أن يكون لهم فى كل شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثة أيام : يوم فى أوله ، ويوم فى وسطه ، ويوم فى آخره . وفى هذه الأيام الثلاثة يدعون بالدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسطالية . ولا يزال المصلى كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيسبغ الوضوء ، ويتطهر . وإذا أقبل أول النهار ذبح بيده من محلل الحيوان(٢) .

ولهذه العبادة أربعة أعياد(٣) . يوافق الأول يوم نزول الشمس برج

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٢ . — (٢) ج ٤ ص ٣٠٣ .

(٣) يذكرون انها ثلاثة (ص٣٠٤) غير انه يتبين أنها أربعة فى مقطع آخر (ص٣٠٥) .

الحمل ، عندما يستوى الليل والنهار ، ويعتدل الزمان ، ويطيب الهواء ، وهو اليوم الموافق ابتداء فصل الربيع . ويكون الثانى عندما تنزل الشمس أول السرطان ،أى عندما يتناهى طول النهار وقصر الليل ، ويجئ الصيف ، ويشتد الحر. ويوافق الثالث استواء الليل والنهار ودخول الخريف ، والرابع عندما يتناهى طول الليل ، ويدخل الشتاء . ويرمز العيد الأول للفرح والخصب والخروج من الشدة ، والثانى للتعب والنصب ، والثالث للفرح الممزوج بالحزن والغم ، والرابع للحزن والكآبة .

ويرون أنهم أحق الناس بالعبادة الشرعية ، كما أنهم أحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الالهية ، والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها . وبعد أن يستعرضوا هذه الأعياد التى ينسبونها إلى الحكماء القدماء ، ويذكروا أنهم أحرى الناس بها ، يشيرون إلى أن لهم أربعة أيام يتخذون منها أعياداً ، ويأمرون الاخوان بالاجتماع فيها ، والسعى إليها . وما هى فى الواقع إلا الأعياد الفصلية التى أشرنا إليها ، يحتفلون بها فى أول الربيع والصيف والخريف والشتاء . وهى ترمز إلى أمور معينة شبيهة بها .

لسنا نجد متسعاً للوقوف على حقيقة هذه الأعياد الشهرية الثلاثية ، والفصلية الرباعية ، ولكن من مبادئ تاريخ الوثنية أنها كانت من تقاليد قدماء اليونان والرومان ، ومن بقايا الكلدانية والبابلية والأشورية والمصرية ، وما تشعب عن هذه من عقائد وطقوس فرعية ، توزعت فى الشعوب التى تأثرت بها . ولم تكن الأعياد الوثنية تعتبر مناسبات للسرور ، وإحياء الأفراح ، والتمتع بلذائذ الحياة فحسب ، كما هى العادة الجارية فى بعض الديانات الموحدة ، وإنما تختلف طبيعتها ، كما نجد فى الصابئة وإخوان الصفا ، باختلاف الاله الذى تقام من أجله . فهناك أعياد فرح ، يبتهج فيها الشعب على اختلاف طبقاته . وهناك أعياد حزن وكآبة ، تقوم فيها جموع المؤمنين بضروب من الشعائر التى تعبر عن مدى أساهم .

والأعياد الفصلية التى يشير إليها الاخوان ، بل هم يتقيدون بها،وإن سوهوا أمرها على المريدين ، نجدها بأجلى وضوح فى الديانات الشرقية القديمة ، كما نتبينها فى الوثنيتين الاغريقية والرومانية . وهى مناسبة مؤاتية للاحتفال بما يطرأ على الطبيعة من تعديل وتطور فى أوائل الفصول . فعيد الشمس مثلا

فى الخامس والعشرين من ديسمبر وهو اليوم الأول من السنة الجديدة أو يوم « الشمس الجديدة » *Sol Novus* وعيد الربيع فى ٢٥ مارس ، وهو يدل على تغلب الشمس على الليل ، ويمثل فى نظر الوثنية الرومانية عيد فرح ؛ لأن البحارة يبدءون فيه بمجابهة البحر ، بعد أن تهدأ العواصف . وكان القرنان الثالث والرابع المسيحيان عهد ازدهار لهذه الأعياد الفصلية (١) .

وأما الأعياد الشهرية التى وقفنا عليها عند إخوان الصفاء فنحن واجدوها بحذافيرها فى الوثنية الشرقية القديمة ، وفى المذاهب الغربية التى تأثرت بها ، وعرفت عهدئذ باسم « الأعياد الشهرية » . وكانت تقع فى أول الشهر ومنتصفه وآخره(٢) .

بعد هذه الاشارات الموجزة التى سقناها لا أعلم ألا يزال حضرة الكاتب على رأيه السابق من أن إخوان الصفاء لم يخرجوا عن التقاليد الحنيفية ، وأن كل هذه الأعياد لا أصل لها فى الواقع ، وإنما هى رموز يقصدون بها أعياداً شرعية ، وأن الدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسطاطالية رموز أيضاً ، لأن هذه الشخصيات تمثل الأئمة ! وقد وردت هذه الأسماء فى تضاعيف الرسائل مئات المرات ، لتدل على المسمى الحقيقى . وأما هنا ، هنا فقط — فى رأى الناقد — فهى للدلالة على الأئمة من أهل البيت ، وذلك لأن أحدهم قال : « أنا أرسطاطاليس هذه الأمة » !

## خلاصة

وخلاصة ما أريد قوله « أن معالم الوثنية » بادية فى الرسائل ، ولا سيما فى النقاط الآتية :

١ — مخالفة إخوان الصفا لعامة المسلمين فى فصل السياسة عن الدين ،

---

(١) *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines*, t. II, p. 1062, Paris 1896.
Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, p. 90, Paris 1929.

(٢) E. Dhorme, *Les religions de Babylone et d'Assyrie*, pp. 234-235, Paris 1945.

وسعيهم لاقرار حكومة جمهورية يقومون هم على توجيهها ، وتسلم مقدراتها ، أسوة بالفيثاغورية الكرتونية .

٢ — ادعاؤهم بأنهم يستقون القسم الأوفر من تعاليمهم من هرمس ، وهو مشهور بأنه من آلهة الصابئة .

٣ — اشتهار الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل بالخروج عن المألوف(١) .

٤ — اعتقادهم بالتنجيم على الطريقة الوثنية الشرقية ، من حيث دلالة الكواكب على المستقبل ، والقيام بشعائرها الخاصة ، وتقديم القرابين لها ، لاستنزال خيراتها ، و إقصاء شرورها ، مما نجده مفصلا فى مذهب أهل حران .

٥ — احتفالهم بالأعياد الشهرية والفصلية ، وقيامهم بالدعاء الأفلاطونى والأرسطاطاليسى والفيثاغورى .

٦ — اشتهار الطبيب أبى الحكم القرطبى ناقل الرسائل إلى الأندلس بالسحر ، وهو من الذين نزلوا حران(٢) .

٧ — نسبة الفيلسوف اليونانى فيثاغورس إلى حران . وليس من الغريب أن يخطئ إخوان الصفاء فى أصله ، ولكن الغريب حقا هو زعمهم أنه حرانى المولد والنشأة . فلم اختاروا له هذه المدينة الوثنية ؟ فى رأينا أن الاخوان كانوا يعرفون الواقع ، ووقفوا على الفقرات المقتضبة التى وضعت فى ترجمة مشاهير علماء اليونان وفلاسفتهم و إنما تجاهلوا الحقيقة . ودليلنا أن ابن النديم ، وهو معاصر لهم . أو جاء قبلهم بقليل ، أشار إلى فيثاغورس إشارة صريحة فى الفهرست(٣) .

---

(١) بين الذين أسهموا فى تدبيجها أبو احمد النهرجورى — ويقال فى بعض كتب التراجم « أحمد النهرجورى » — . وقد عرض ياقوت له ، فجاء فيما قاله فيه « ... وكان شيخاً قصيراً شديد الادمة ، متظاهراً بالالحاد ، غير مكاتم له ، ولم يتزوج قط ... » ياقوت معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٣ — ٧٩ مطبوعات دار المأمون — مصر .

(٢) جاء فى طبقات الأمم للقاضى صاعد ما يلى « ... ورحل إلى ديار المشرق ، وانتهى منها إلى حران ... ثم رجع واستوطن مدينة سرقسطة ... وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ، ولا أعرف أحداً أدخلها لأندلس قبله ( طبعة الأب شيخو ص ٧٠ — ٧١ ) .

(٣) قال ابن النديم « ان أول من تكلم فى الفلسفة بوثاغورس ، وهو بوثاغورس بن ميسارخس من أهل سامينا ... وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، وانما سميت بهذا الاسم لان جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاما لها وإجلالا ( ص ٣٤٢ — ٣٤٣ الطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ . )

وذكر أصله اليونانى ، وأورد ما ينسب إليه من الكتب والرسائل . وقد استقى ابن النديم قوله من كتب شائعة فى عصره . فلم حرف إخوان الصفاء النصوص التى بين أيديهم ، ونسبوه إلى حران المدينة الوثنية دون غيرها ؟

لست أجزم أن إخوان الصفاء جماعة وثنية منظمة ، وهذا ما لم أقله فى الكلمة الأولى التى أذاعتها مجلة « الأديب » البيروتية بعنوان « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفا » . ولكنى واثق كل الثقة أن مطالعة الرسائل بشى من إنعام نظر وتحقيق ، قد تقفنا على أمور لا نفطن إليها الآن ولا تخطر لنا ببال ، وقد تجعلنا نعدل كثيراً من آرائنا فى الاخوان ، وننظر إليهم نظرة مغايرة لما هو مألوف ، بل قد تجلو أمامنا أفقاً جديداً فيما يتعلق بالأسس الظاهرة والخفية فى الفلسفة الاشراقية عامة ؛ لأن النظرية الشائعة فى كتب الباحثين من شرقيين ومستشرقين القائلة بأن العرب أخذوا عن اليونان وحدهم ، واقتصروا فى ثقافتهم على هذا المنبع ، هى نظرية بحاجة إلى إثبات ، ويجب أن نتدبرها بحكمة ، ونعيد التحقيق فى أصولها ؛ فالمفكرون فى حضارة العرب قبسوا من مدرسة الصابئة قبساً واقراً من مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، من فيض ، والجذاب ، وأثر الكواكب السيارة ، كما أنهم أفادوا من العلوم التى رافقت هذا اللون من التفكير كالهيئة والتنجيم والحساب والجبر والهندسة[1] .

جبور عبد النور

---

(١) راجع بحثا لنا بعنوان « الصابئة وأثرها فى الفكر العربى » مجلة « الكتاب » عدد مايو ١٩٤٦ .